مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : …-….. Issn : 2353-043X
المجلد 08/ العـدد 02: (2021)، ص: 62-75

التشاكل الحرفي في النظم القرآني بين (السجع) و(الفاصلة)
-قراءة في آراء اللّغويين العرب قديما وحديثا –

فايزة كشنيط[1]

[1]جامعة الجزائر1: بن يوسف بن خدّة كلية العلوم الإسلاميّة – خروبة- الجزائر.

ملخص:

اختلف اللغويين العرب في تصنيف (التشاكل الحرفي) في النظم القرآني بين كونه ضربا من التسجيع البلاغي، وبين كونه نظاما من الفواصل، فتجاذبت الآراء بين أطراف متعددة قديما وحديثا، واختلفت منهجا وغاية؛ حيث ارتبطت عند القدماء بتنزيه القرآن الكريم تارة، وبالبحث عن مواطن الجمال والحسن في النظم القرآني تارة ثانية، ليتوجه الاختلاف عند المحدثين إلى أفق البحث عن الاصطلاح المناسب لصفة الإعجاز في القرآن الكريم في ظل دراستهم لبلاغة الإيقاع في النظم القرآني، ورغم تعدد الآراء بين القديم والحديث إلا أنها اتحدت في مقصد: خدمة كتاب الله تعالى.

Abstract :

Ancient and modern Arab linguists disagreed about naming of the similarity of the last letters between the Quranic verses, Some called it Fassil (Quranic rhyme), because they wanted to defend the Holy Quran, But others called it Saj' (Assonance) in order to reveal the manifestations of beauty in the Quranic language. At the end, although each group had objective arguments, all of them aimed to prove that the Holy Quran is a miracle.

المؤلف المرسل: فايزة كشنيط

مقدمة:

إن المتأمل في البنية الصوتية للنظم القرآني يلحظ أنها بنية ذات جرس صوتي متوازن، تأنس له الأذن حال الاستماع، وترتاح له النفس حال القراءة، وقد تنبه إلى

التشاكل الحرفي في النظم القرآني بين (السجع) و(الفاصلة)
-قراءة في آراء اللّغويين العرب قديما وحديثا –

هذه الخاصية القدماء والمحدثون واتفقوا على أن المنشأ الأول[1] لهذا التوازن تشاكل حروف رؤوس آيه بالتماثل أو التقارب، غير أنهم اختلفوا في تصنيفه بين كونه ضربا من التسجيع البلاغي، وبين كونه نظاما من الفواصل[2]؛ لتتجاذب التسمية بين مصطلحين:(السجع) و(الفاصلة) تجاذبا خلف آراء متباينة بين اللغويين العرب قديما وحديثا؛ وهذا ما جعل من الاختلاف قضية متجددة.

فلا غرو أن تجدد الاختلاف السابق، سبب وجيه يدفع أي باحث إلى خوض غمار بحث علمي غايته فك شيفرته، وتحديد المصطلح المناسب لـ (التشاكل الحرفي) في النظم القرآني -إن وجد- قبل الانتقال إلى بيان أسراره -مثلما دأبت عليه كثير من الدراسات السابقة- خاصة إذا علمنا أن نمو إشكالية هذا الاختلاف كان في حقل معرفي متنوع الاتجاهات والأدلة، أثرته وجهات نظر تمايزت منهجا وغاية. ويمكن حصر هذه الإشكالية في سؤال محوري مفاده: إلى أي مدى تباينت مواقف اللغويين العرب قديما وحديثا حول تسمي (التشاكل الحرفي) بين رؤوس أي القرآن الكريم؟ وما آفاق كل موقف وما غايته؟

و وصولا إلى جواب للإشكالية السابقة، فإنه لا مناص من التعريج على آراء نماذج بما يخدم الغاية المنشودة، وتحليلها وفقا للمنهج الوصفي، وتبعا للتسلسل الزمني من الفكر التراثي القديم إلى التفكير النقدي الحديث، موضحين في الآن ذاته مرمى كل موقف وخلفياته التي بني على أساسها. ويسبق ذاك كله: قراءة موجزة لمفهوم (التشاكل الحرفي) في الدرس العربي المعجمي، والدرس البلاغي النقدي.

1. (التشاكل الحرفي)– قراءة في المفهوم والمصطلح-

(التشاكل) في اللغة من الماد المعجمية / ش ك ل/ وقال ابن فارس في بيان دلالتها: «الشين واللام والكاف معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شكل هذا، أي مثله. ومن ذلك أمر مشكِل، كما يقال أمر مُشتبِه، أي هذا شابه هذا، وهذا دخل في شِكل هذا، ثم

---

[1] هناك أسباب أخرى لتوازن البنية الصوتية القرآنية مثل: وجود مقاطع صوتية مشتركة داخل التركيب القرآني المتلازم من حيث المعنى. ينظر: سعاد كريم خشيف، التشاكل الصوتي القرآني وأثره في تكثيف الدلالات، مجلة جامعة ذي قار، المجلد6 ، العدد 02، مارس2011، ص163.

[2] نظام التسجيع نظام عرفته العرب قبل نزول القرآن الكريم، أما نظام الفواصل فظهر مع نزول القرآن الكريم مثلما قرره كثير من العلماء قديما وحديثا، والباقلاني أول من جاء بمصطلح (الفاصلة)، وهو يفصل في أنواع (استراحة الكلام). ينظر: الباقلاني (أبو بكر بن الطيب)، إعجاز القرآن، السيد أحمد صقر، [دط]، دار المعرف، مصر، [دت]، ص 61 .

يحمل على ذلك، فيقال: شَكَلتُ الدابة بشكاله، وذلك أنه يجمع بين إحدى قوائمه وشِكْلٍ لها.»[3].

فظاهر من الكلام السابق أن الدلالة اللغوية للتشاكل يدور حول مفهوم المماثلة لشيئين أو التشابه بينهما إما بتكرارهما أو اشتراكهما في عدد من الصفات تجعلهما قريبي الهيئة والصورة. وإذا نسبنا (التشاكل) للحروف، فإن المماثلة تكون بين مقاطع كلامية؛ وذلك من خلال تكرار الحرف ذاته في المقطعين أو الإتيان بحرفين متقاربي الصوت بسبب خروجهما من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين.

ومن الدلالة اللغوية لـ (التشاكل الحرفي) نستنج مفهوما اصطلاحيا له مفاده: (تكرار حرفين متماثلين أو متقاربي المخرج في الكلمتين الأخيرتين لمقطعين كلاميين)، والمقصود بالمقطع الكلامي: تركيب ذو فائدة يحسن السكوت على آخره، ويستريح الكلام عنده[4] منبئا عن بداية جديدة. والغرض إضفاء جرس صوتي متوازن يزيد الكلام حسنا وبديعا.

وبالعودة إلى الكتب التراثية للغويين العرب نجد أن مصطلح (التشاكل الحرفي) حاضر ولكن تحت مسميات أخرى؛ فعبر عنه بـ (السجع) تارة، وبـ (الفاصلة) تارة ثانية، وفي هذا الصدد يقول أبو بكر الباقلاني: «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني. والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب؛ وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها [...]»[5].

فكان التشاكل في نظر الباقلاني جامعا بين (السجع) و(الفاصلة)، وفي الآن ذاته فاصلا بينهما، ولعل المقابلة التي قدمها تقوم في أساسها على إفادة الصوت لمعنى أو عدم إفادته وهذا ما جعل المسألة خاصة بنوعين من (التشاكل الحرفي)؛ الأول ذو فائدة بلاغية وهي (الفاصلة)، أما الثاني ففاقد للفائدة البلاغية وهي المفهومة من إطلاق لفظ (السّجع) عند العرب، الذي ليس فيه إلا الأصوات المتماثلة محاكاة لصوت الحمام (الهديل) [6].

---

[3] ابن فارس(أحمد بن زكريا) ، مقاييس اللغة ،ت: عبد السلام محمد هارون ،[دط]، دار الفكر،1979م ، (3/ 204).

[4] ينظر: الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) ، المصدر نفسه، ص 61 .

[5] المصدر نفسه، ص 270 . وأورد الرماني الكلام نفسه، ينظر: الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى) ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت : محمد زغلول سلام ، ط3 ، دار المعارف ، مصر، ص 97 .

[6] ينظر: الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى)، المصدر نفسه، ص 98 .

التشاكل الحرفي في النظم القرآني بين (السجع) و(الفاصلة)
-قراءة في آراء اللّغويين العرب قديما وحديثا –

وقد أرجع كل من الباقلاني والرماني أصل النوع الثاني (السجع) إلى نمط كلامي خاص عرفه العرب قبل نزول القرآن الكريم يسمى (سجع الكهان)، وهي طائفة في الجاهلية زعمت أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجنّ، وكان العرب قديما يقدسونهم ويلتجئون إليهم في كلّ شؤونهم، وقد يتخذونهم حكاما في خصومهم ومنافراتهم[7]، وكان توخي التوافق الصوتي سمة بارزة في كلامهم وتقنية يلجأ إليها الكهان لتمويه المستمعين وصرف أذهانهم عن كذبهم وخزعبلاتهم؛ فيلقون نبوءاتهم المزعومة أصواتا متشاكلة مبهمة، متكلفين في ذلك على حساب المعنى بغية التأثير في المستمعين[8].

غير أن شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني رأى أن سجع الكهان استعمال لا يتوقف عنده حكم نهائي؛ فإن ارتقى التوافق الصوتي بين أواخر مقاطع الكلام في استعمال آخر إلى انتاج دلالة جديدة خادمة للمعنى المراد من التركيب سيرتفع عنه وصف العيب تلقائيا، ويدخل هذا التشاكل ضمن البلاغة، ويجوز تسميته: (سجعا بلاغيا)، وضابطه عند الجرجاني أن يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه[9]، وإن التمعن في هذا الضابط يلوح بالفكر إلى وجود اتفاق ضمني بينه وبين ضابط (الفاصلة) عند الباقلاني:(حروف متشاكلة توجب حسن إفهام المعنى)؛ مما يؤدي إلى القول: إن (الفاصلة) عند الباقلاني هي نفسها (السجع البلاغي) عند عبد القاهر الجرجاني.

غير أن الاتفاق السابق لم تدم صلاحيته طويلا؛ فكان الانتقال إلى دراسة تشاكل حروف النظم القرآني سببا في تجاذب التسمية من جديد؛ حيث آثر الباقلاني وغيره من المتكلمين استعمال مصطلح (الفاصلة) للنظم القرآني بل وجعلوها خاصة به فقط[10]، رافضين في الآن ذاته مصطلح (السجع) رفضا تاما، وإن تحقق فيه مفهوم البلاغة مثلما قرره عبد القاهر الجرجاني وغيره من البلاغيين.

---

[7] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ط24، دار المعرف، القاهرة، [دت]، ص420.

[8] ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمعها: د/ أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الاسلامي، 1997، (519/3).

[9] ينظر: الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر)، أسرار البلاغة، ت: محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني، (1412هـ/1991م)، ص (11-12).

[10] ينظر: الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) ، المصدر نفسه، ص 61.

2. (تشاكل الحروف) في النظم القرآني من منظور القدماء:

كان عذر فئة المتكلمين في رفضهم مصطلح (السجع) للدلالة على (التشاكل الحرفي) في القرآن الكريم، أصالته وفرادته عن غيره من النصوص مما ناسب ذلك تسمية أصيلة وفريدة تتعلق به دون غيره من النصوص السابقة أو اللاحقة، أما تسمية السجع فرأوا أنها متعلقة بكلام الكهان أصالة وصفة أيضا.

فربط الرماني ميزة المشاكلة في أي نص بتبعيتها للمعنى؛ فإذا كانت المشاكلة وصلة فهي بلاغة، أما إن كانت على خلاف ذلك فهي عيب ولُكنة؛ لأن المشاكلة من باب الزينة التي تضاف على الكلام، ومن هنا وجب أن تكون تابعة له، أما أن يرتبط شرف الكلام بها فإنه تكلف في المعنى من غير الوجه الذي توجبه الحكمة لمن له أدنى فهم، لأن الكلام في هذه الحالة سيخرج غثا ركيكا على حد تعبير الرماني، مستشهدا بما يحكى عن بعض الكهان: (والأرض و السماء، و الغرابة بنقعاء، لقد نفر المجد إلى العشراء)، ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب: (يا ضفدع نقي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا النهر تفارقين).[11]

ولما عاد الرماني إلى النظم القرآني وجده في أعلى مراتب البلاغة محققا غاية البيان؛ وعند تأمله لمشاكلته الحرفية وجدها جاءت خادمة للمعنى متناسقة معه، حتى باتت من المعنى والمعنى لا يستقيم دونها، وهو تناسق جعل المعنى القرآني ينفذ إلى قلب المستمع في أبهى حلة وفي سلاسة[12]، وهذه المرحلة من البلاغة بين الصوت المتشاكل والمعنى المقامي لم يصل إليها أحد قبل القرآن الكريم ولا بعده، فكيف إذن بعد هذه المفارقة الشاسعة أن يعبر عن أفق بلاغي جديد بمصطلح دال على استعمال قديم أدنى مرتبة منه ! ومن هذا الباب ارتأى الرماني تسميته بـ (الفاصلة) قائلا: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة [...]»[13].

ولم يختلف الباقلاني عن النتيجة التي وصل إليها الرماني، إلا أنه كان أكثر منهجية في بناء موقفه؛ فاستهله بمدخل موضوعي بيّن فيه أنواع الكلام التي يجب بيان وجه عجزها أمام القرآن الكريم، وحصرها في (الشعر) و(سجع الكهان)؛ لأنها كانت مثال البلاغة للعربي، ورغم ذلك لاحظ الباقلاني أن أحدا لم يعتبرها أثناء نزول القرآن

---

[11] ينظر: الرّماني (أبو الحسن علي بن عيسى)، المصدر نفسه، ص (97-98).

[12] البلاغة عند الرماني: (إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ). ينظر: المصدر نفسه، ص (75-76).

[13] المصدر نفسه، ص98.

الكريم ولم يحتجوا بها عليه عندما تحداهم القرآن الكريم، ولا سبيل إلى تفسير هذا الانصراف سوى إدراكهم الفطري لقصور نصوصهم عن مجاراة النظم القرآني، وتفرده عنهم، إلا أن هناك من سمحت له بصيرته القوية بإدراك ذلك سريعا، وهناك من تأخر إلى أن اجتمعت لديه أسباب الفهم[14].

وبعد تقرير المدخل الموضوعي انتقل الباقلاني إلى المرحلة الثانية: «[...] ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السّجع، ولا فيه شيء منه [...]»[15]؛ فراح يفند أدلة من زعم أن في القرآن شيء من السجع[16]، لأنه زعم –في نظره- مناف لصفة الإعجاز، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن كلام العرب، ولو كان كذلك لما كان معجزا، ثم رأى أن اعتباره (سجعا معجزا) يلزم منه إمكانية اعتبار القرآن (شعرا معجزا) وهذا فاسد في أصله[17].

كما رأى الباقلاني أن الذين جعلوا نظام (التشاكل الحرفي) في القرآن الكريم من باب السجع لم يحترموا مناهج تحسين الكلام في فن البديع؛ إذ إنهم نسبوا إلى السجع نظاما يخالف نظامه الأصلي في التماثل والقصر الذي قرره له منشئوه من الكهان قبل نزول القرآن الكريم؛ فإذا «[...] تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحا من الكلام. وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا، وكان شعره مرذولا، وربما أخرجه عن كونه شعرا [...]»[18]، فكيف تقع التسمية ذاتها لبنية أخرى؟

واستعمل المؤرخ (ابن خلدون) الفكرة نفسها في القرن الثامن الهجري؛ فقام مذهبه على مبدأ تقسيم أجناس الكلام إلى: (شعر) و (نثر) و (قرآن) جاعلا إياها في زمرتين مختلفتين من الناحية الفنية: فـ (الشعر) و(النثر) في الزمرة نفسها من كلام العرب، «[...] و أمّا القرآن و إن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين، و ليس مرسلا مطلقا و لا سجعا، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بإنهاء الكلام عنده،

---

[14] ينظر: الباقلاني (أبو بكر بن الطيب) ، المصدر نفسه، ص (6–24–25).

[15] المصدر نفسه، ص 35.

[16] للاطلاع على هذه الأدلة ينظر: المصدر نفسه، ص (51–57).

[17] ينظر: المصدر نفسه، ص (57–58).

[18] المصدر نفسه، ص 59.

ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا و لا قافية، [...] ويسمى آخر الآيات منها فواصل؛ إذ ليست أسجاعا، و لا التزم فيها ما يلتزم في السّجع [...]»[19].

ولقد تنبه البلاغيّون كذلك إلى فكرة منافاة البنية الصوتية للقرآن الكريم للبنية التقليدية للسجع عند العرب، إلا أنها لم تكن سببا كافيا لرفض تسمية (التشاكل الحرفي) بين آياته سجعا، بل إن المنافاة مسوغ لجواز التسمية، ويعلل الجاحظ هذا المذهب بقوله: « وكان الّذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أن كهان العرب الّذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم [...] كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع [...] قالوا: فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم»[20].

فالأصل في السّجع هو الاستحسان غير أنه أصل قابل للتغير موازاة مع الاستعمال والقدرة على الحفاظ على حسنه أثناء التوظيف[21]؛ فإن الّذي حدث أن الناس أدركوا قبح توظيف الكهان للتشاكل الحرفي بعد نزول القرآن الكريم، فكره السّجع وكره أن يقال: إن في القرآن شيء منه؛ لأنهم كانوا لايزالون متأثرين بأدبهم القديم، فتم تحريم السّجع عنه حتى لا يتوهم أن القرآن من قبيل كلام الكهان، وبعد أن تمكن القرآن من قلوبهم لم يعد هناك من داع لرفض التسمية في نظر الجاحظ وغيره من البلاغيين، بل إن النظم القرآني قدم نموذجا فريدا ومتميزا للسجع، كان (التشاكل الحرفي) فيه ضرورة استلزمها المقام ولو عدل عنه لدخل التركيب في عقوق المعنى مثلما قرره عبد القاهر الجرجاني أيضا[22].

وشرح ابن حازم القرطاجي مدى حاجة المعنى إلى التسجيع عندما اعتبره آلية تحسينية لنظام الكلام، ومنهج ترتيبي يعين المتكلم على مراعاة مقادير التأثير في النفس الانسانية؛ لأن: «[...] النفس في النقلة من بعض الكلمة المتنوعة المجاري إلى بعض على قانون محدود راحة شديدة واستجدادا لنشاط السمع بالنقلة من حال إلى حال؛ ولها في حسن اطراده في جميع المجاري على قوانين محفوظة قد قسمت المعاني فيها على

---

[19] ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، المقدمة، ت:عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار البلخي، دمشق، 2004م، (393/2).

[20] الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1418ه/1998م)، (289/1-290).

[21] والفكرة نفسها عند عبد القاهر الجرجاني. ينظر: الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر)، المصدر نفسه، ص09.

[22] ينظر: المصدر نفسه، ص09.

المجاري أحسن قسمة، تؤثر من جهتي التعجب والاستلذاذ للقسمة البديعة والوضع المتناسب العجيب [...]»[23]، فلا يقدر على هذه المرتبة من تنظيم الكلام سوى من استحكم فنون الكلام واكتملت عنده ملكة البلاغة، ولا شك أن النظم القرآني حاز أعلى مرتبة حينما اكتملت فيه أسباب التأثير.

وبناء على ما سبق رأى ابن الأثير أن الذي ذم السجع ليس له حجة «[...] سوى عجزهم أن يأتوا بمثله [...]»[24]، ولو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم الذي يقدم لنا نموذجا بلاغيا معجزا لنظامه ومتميزا: «[...] فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعا مسجوعة، كسورة الرحمان، وسورة القمر وغيرهما. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور»[25]. ودليل تميز سجع القرآن في نظر ابن الأثير عدم ورود القرآن كله مسجوعا، بل ورد فيه القسمان المسجوع وغير المسجوع في تعادل فني واحد[26] وهذا ما استفقد في كلام العرب قديما.

ويذهب ابن سنان الخفاجي مذهبا وسطا بين المتكلمين وغيره من البلاغيين حينما رأى أن جزءا من نظام (التشاكل الحرفي) في القرآن الكريم من باب (السجع)، أما الجزء الثاني فهو من باب (الفاصلة)، ويوضح رؤيته قائلا: «[...] والّذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال: إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه، والفواصل على ضربين: ضرب يكون سجعا، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعا، وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين – أعني المتماثل و المتقارب- من أن يأتي طوعا سهلا وتابعا للمعاني والضد من ذلك [...] فأمّا القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه في الفصاحة [...]»[27].

إن الموقف الذي ارتضاه ابن سنان الخفاجي قد يعد رأيا جامعا بين المتكلمين والبلاغيين، غير أنه لم يكن حلا فاصلا في القضية عند المحدثين بل كان بداية لاختلاف

---

[23] ابن حازم القرطاجي (أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب بن خوجة، [دط]، دار الغرب الاسلامي، [دت]، ص(122-123).

[24] ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، [دط] ، دار النهضة، القاهرة، [دت]، (210/1).

[25] المصدر نفسه، (210/1).

[26] ينظر: المصدر نفسه، (214/1).

[27] ابن سنان (أبو محمد عبد الله)، سر الفصاحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1402ه/1982م)، ص172.

جديد ذي جذور تراثية كان هم أصحابه تحديد المصطلح المناسب لصفة إعجاز القرآن الكريم في ظل دراستهم لبلاغة الإيقاع في النظم القرآني.

3. (تشاكل الحروف) في النظم القرآني من منظور المحدثين:

وافق الدكتور زهير غازي طرح ابن سنان الخفاجي عندما لاحظ أن تعاريف المتكلمين لـ (الفاصلة القرآنية) و(السّجع) تعاريف متقاربة اللفظ والمفهوم سوى أن أصحاب الإعجاز القرآني أرادوا تنزيه القرآن الكريم فخصصوا له مصطلح (الفاصلة) دون السجع، ولكن (سجع الفواصل) -مثلما سماه الدكتور- وهو غير سجع الكهان الغامض المتكلف والممل، بل هو تابع للمعنى مكمل له مثلما رآه كثير من البلاغيين القدامى: «[...] أما قولي في الفواصل فهو أقرب إلى قول البلاغيين أن قسما منها كان سجعا باعتبار أن السجع تماثل الحروف في مقاطع الفواصل ، ولا أرى فائدة مما ذهب إليه الرماني والباقلاني وإضرابهما في أنّ السّجع عيب، وهما يؤكدان أن قسما من الفواصل سجع ولكنهما ينكران هذا المصطلح تنزيها للقرآن الكريم، أليس القرآن الكريم نزل بلغة العرب وتحدى فصحاءهم [...]»[28].

لم يقتنع كثير من الباحثين المحدثين بالطرح السابق؛ لأنهم عندما ربطوا القضية بإعجاز القرآن استشكل عليهم جعل المصطلحين قسيمين للدلالة على نظام واحد، فلم يكن أمامهم إلا تغليب أحد المصطلحين على الآخر.

فآثر محمد الحسناوي وعائشة بنت الشاطئ مصطلح (الفاصلة القرآنيّة)، واعتبراه المصطلح الآمن للدّلالة على نظام التوازن الصوتيّ في القرآن الكريم، وذلك اعتبارا لقدسيته، و تميز نظمه عن غيره فلا هو شعر ولا نثر، وإنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت، ويسكن لها الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارئ و وجدانه [29]، فصعب بذلك الجمع بين هذا المعنى و مصطلح السجع، مثلما ارتآه المتكلمون سابقا.

ومن طرف نقيض لم ير عبد الرحمان تاج قدسية القرآن الكريم مانعا من تسمية (التشاكل الحرفي) في القرآن الكريم سجعا؛ لأن المصطلح له أن يتطور في دلالته

---

[28] زهير غازي زاهد، "الفاصلة القرآنية" طبيعتها الإيقاعية و وظيفتها، مجلة: كلية التربية للبنات، 2009، جامعة بغداد (قسم اللغة العربية)، المجلد 20، ج3. [الطبعة غير مرقمة الصفحات].

[29] ينظر: عائشة بنت الشاطئ، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق –دراسة قرآنية–، ط3، دار المعارف، القاهرة، (1404هـ/1984)، ص268. وينظر: محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ط3، دار عمّار، (1421هـ/2000م)، ص92.

التشاكل الحرفي في النظم القرآني بين (السجع) و(الفاصلة)
-قراءة في آراء اللّغويين العرب قديما وحديثا –

عبر التقدم الزمني توازيا مع تطور الاستعمال وتغيره، وتعييب السجع ما هي إلا صفة مرتبطة بفترة زمنية معينة وباستعمال محدد يتمثل في (سجع الكهان)، ولما نزل القرآن الكريم عرف هذا المصطلح استعمالا بديعا، حسّن من البناء البلاغي له بخروجه من نظام شديد إلى نظام مرن تمكن من العدول عن الفاصلة السجعة الغالبة إلى سجعة أخرى أو إلى إرسال متى دعت الحاجة المعنوية لذلك، وهذا ما سمح بخلق رابط متين بين اللفظ ومعناه[30]، عجز العرب على الإتيان بمثله رغم معرفتهم لهذا الأسلوب في كلامهم، ولو قام التحدي بلفظ (الفاصلة) لما استقام؛ لأنه في هذه الحالة يكون مظهرا لغويا جديدا خارجا عن معهود العرب.

ويدعم عبد الرحمان تاج موقفه بحجة (الأسبقية التاريخية) لمصطلح (السجع) التي ترجح كفته، فلماذا يتم العدول عنها إلى تسمية أخرى؟: «[...] ولك فريق آخر من الباحثين لا يجيز أن يقال إن القرآن فيه سجع. ولماذا؟ هل يرون أنّ حقيقة السّجع وماهيته تأبى أن تنطبق على الفواصل المتناسبة في مثل ما قدمناه من السور والآيات؟ وما هي الحقيقة التي لا تنطبق على تلك الفواصل؟ إنّ هؤلاء المانعين الّذين لا يقولون بالسّجع في القرآن لم يبينوا بيانا شافيا أصل ذلك المنع ولم يعينوا النقطة الّتي ينفصل عندها السّجع عن تناسب الفواصل القرآنيّة حتى يتضح السبيل ويزول الإبهام ويستقيم الأمر في إطلاق الألفاظ على معانيها الخاصة.» [31].

فإغفال تعليل الانحراف عن التسمية الأولى في نظر عبد الرحمان تاج خلل منهجيّ عندما انتصر الرافضون للفظ البديل (الفاصلة) على اللفظ الأصل (السّجع)، وإن كان الرمانيّ ومن تبعه قد قدّموا مسوغا لرفضهم بفارق تبعية اللفظ للمعنى، إلاّ أنّه تفريق لا يؤدي حق الغاية الّتي أرادها أصحابه لكونه تفريقا من حيث التوظيف لا من حيث الماهية وحقيقة الدلالة الاصطلاحيّة[32]، وهذا لا يخول تغيير حقيقة الأمر ولا تسميته.

وسبق عبد الرحمان تاج إلى هذه الرؤية مصطفى صادق الرافعي وهو يؤسس لنظرية النظم الصوتي في الإعجاز القرآني، حينما أثبت وجود نظام موسيقي في القرآن

---

[30] ينظر: عبد الرحمان تاج، السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد36، نوفمبر، 1975م، القاهرة، (20–21).

[31] المرجع نفسه، ص22.

[32] المرجع نفسه، ص (23–24).

الكريم قائم على تساوق النظم حرفا متشاكلا في استواء تأليفي معجز، وكان الذي عارضه كمسيلمة الكذاب عارضه في أوزان الكلمات وأجراس الحروف، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها، ومحاسنها ودقائق التركيب البياني[33]، وهذا الذي عابه العرب في السجع، ليرتقي النظم القرآني إلى توظيف معجز، بل إنه قدم للسجع بنية بلاغية فريدة.

ومن زاوية فرادة بنية (التشاكل الحرفي) في النظم القرآني رجح (أحمد الحوفي) مصطلح (السّجع) أيضا، وهو يرى بأنه لا حاجة إلى غيره؛ إذ إنّ تناسب الحروف فيه تناسب متميّز فريد من نوعه يشكل بنية صوتيّة ذات أبعاد أعمق من مراد الوقوف عند التشاكل الصوتيّ إلى إيجاد بنية صوتية ناطقة دالة، تعبر عن الغرض من الكلام بل ويحسن تعبيرها حتى لا يتصور حسن من بديل لها في موقعها، وقد رضي (أحمد الحوفي) هذا المذهب قائلا: «[...] ويبدو أنّ الذين أنكروا السجع في القرآن الكريم [...] لم يرتضوا كلمة السجع، فآثروا عليها كلمة فاصلة أو فواصل، ليثبتوا أنّ الإعجاز في الأسلوب القرآنيّ الّذي جاء على نسق مغاير لما عهده العرب واقتدروا عليه. وكأنهم لم ينتبهوا إلى أن السّجع القرآنيّ فريد، يمتاز بأنّه يتحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق، ويخضع كلاّ منهما للآخر في إعجاز بيّن لا ينكر»[34].

إنّ (أحمد الحوفي) في كلامه السابق لم يستعمل مصطلح (السجع المعجز) الذي رفضه الباقلاني وربطه بحتمية القول بـ (الشعر المعجز)، بل جاء بمصطلح آخر مصطلح (سجع فريد) الذي كان مصطلحا أكثر حكمة من المصطلح الأوّل؛ لأنّ الإعجاز القرآنيّ ليس في استقلال كل جزء عن الآخر وإنما إعجازه متحقق في اجتماع أجزائه وتآلفها بصورة مثالية، وتلك هي القيمة الفنية المميزة للنظم القرآني، وإن أريد وصف حسن أساليبه وتميز توظيفها عن غيره من النصوص فلا خير من وصف (فريد) الذي ينتفي به أي احتمال لمشابهة النظم القرآني بأي نظم عربي سابق أو لاحق.

ومن العلاقة الفارقة بين اصطلاحي (السّجع/ الفاصلة) إلى علاقة التماثل البنيويّ تماثلا يصل إلى تجويز المصطلحين معا بالمستوى نفسه؛ حيث اعتبر الدكتور

---

[33] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مراجعة: د/ درويش الجويدي، ط3، المكتبة العصرية، بيروت، (1429 هـ /2008م)، ص(176-177).

[34] أحمد الحوفي، سجع القرآن فريد، مجلة (مجمع اللغة العربية)، العدد28، 1971م، القاهرة (مصر)، ص95.

عبد الغني المرسي السجع نمط من أنماط النثر الفني عند العرب[35]، واحتواء القرآن الكريم على أسلوب السّجع مظهر من مظاهر عروبة اللغة القرآنيّة وإعجازها في الوقت ذاته لما له من حسن في السمع وتأثير في النفس والعقل، ولا مانع من إطلاق (السجع) على فواصل القرآن ما لم يرد نص شرعي يمنع ذلك[36]، مستخلصا أن «القول بالسّجع في القرآن تقرير للفاصلة، والقول بالفاصلة ليس إنكارا للسّجع في حقيقة الأمر؛ إذ هما متقابلان متلاقيان في معناهما»[37].

وانطلاقا من فكرة تساوي دلالة المصطلحين (السّجع والفاصلة) عمد الدكتور محمد محمد أبو ليلى إلى توليد مصطلح ثالث جامع بينهما يتمثل في (الفاصلة السجعية)، وأنّه المصطلح الأنسب للدلالة على (التشاكل الحرفي) في النظم القرآني تساوقا مع تنزيهه عن كل استعمال مذموم قبله، ثمّ إنّ هذا المصطلح هو أقرب إلى التدليل العلميّ على واقع النظام الصوتيّ في القرآن الكريم الذي يلتزم خطة غير التي التزمت في تسجيعات العرب؛ لابتنائها على (الوقف والابتداء) أكثر من التزامها بالتشاكل الحرفيّ المتماثل[38].

---

[35] ينظر: كمال الدين عبد الغني المرسي، فواصل الآيات القرآنية، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (1420هـ/1999م)، ص19.

[36] ينظر: المرجع نفسه، ص40.

[37] المرجع نفسه، ص41.

[38] ينظر: محمد محمد أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي –دراسة نقدية– ، ط1، القاهرة، (1423هـ/2002م)، ص (288–290).

قائمة المصادر و المراجع:

- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، [دط] ، دار النهضة، القاهرة، [دت].
- أحمد الحوفي، سجع القرآن فريد، مجلة (مجمع اللغة العربية)، العدد 28، 1971م.
- الباقلاني (أبو بكر بن الطيب)، إعجاز القرآن، السيد أحمد صقر، [دط]، دار المعرف، مصر، [دت].
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، ت: عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1418هـ/1998م).
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر)، أسرار البلاغة، ت: محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني، (1412هـ/1991م).
- ابن حازم القرطاجي (أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب بن خوجة، [دط]، دار الغرب الاسلامي، [دت].
- ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد)، المقدمة، ت: عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار البلخي، دمشق، 2004م.
- الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى) ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ت : محمد زغلول سلام ، ط3 ، دار المعارف ، مصر.
- زهير غازي زاهد، "الفاصلة القرآنية" طبيعتها الإيقاعية و وظيفتها، مجلة كلية التربية للبنات، 2009، جامعة بغداد (قسم اللغة العربية)، المجلد 20.

خاتمة:

كشفت الدّراسة التحليلية لآراء اللغويين العرب في تسمية (التشاكل الحرفي) في القرآن الكريم بين كونه نظاما من التسجيع، وبين كونه نظاما من الفواصل على أنها قضية ذات مداخل عديدة تجاذبت بين أطراف متعددة قديما وحديثا اختلفت منهجا وغاية ولكنها اتحدت مقصدا؛ فأسفرت الدراسة على جملة من النتائج يمكن صياغتها في النقاط الآتية:

- يمثل التشاكل الحرفي سمة بارزة في البناء اللغوي للقرآن الكريم، ومنشأ رئيسيا لتوازن بنيته الصوتية.
- بني تعريف الفاصلة القرآنية على تعريف السجع، ومُيزت عنه بتبعية المعنى للفظ.
- يوصف الخلاف الواقع بين القدماء من اللّغويين العرب في تسمية التشاكل الحرفي في النظم القرآني على أنّه خلاف شكليّ ظاهريّ؛ فقد رفض المتكلمون تسمية السجع تنزيها للقرآن الكريم ودفاعا عنه وربطوه بعيب استعمال الكهان له، أما البلاغيون فرأوا أن عيب سجع الكهان نمط استعمالي لا يلزم منه تعييب المصطلح في استعمال آخر ارتقى إلى مرتبة البلاغة، والنظم القرآني خير مثال، ومن هنا كان (السجع البلاغي) هو نفسه (الفاصلة القرآنية).

- سعاد كريم خشيف، التشاكل الصوتي القرآني وأثره في تكثيف الدلالات، مجلة جامعة ذي قار، المجلد6 ، العدد 02، مارس2011.
- ابن سنان (أبو محمد عبد الله)، سر الفصاحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1402ه/1982م).
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ط24، دار المعرف، القاهرة.
- عائشة بنت الشاطئ، الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق –دراسة قرآنية–، ط3، دار المعارف، القاهرة، (1404ه/1984).
- عبد الرحمان تاج، السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية، العدد36، نوفمبر، 1975م، القاهرة.
- ابن فارس(أحمد بن زكريا) ، مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون ،[دط]، دار الفكر،1979م.
- كمال الدين عبد الغني المرسي، فواصل الآيات القرآنية، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، (1420ه/1999م).
- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمعها: د/ أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الاسلامي، 1997.
- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ط3، دار عمّار، (1421ه/2000م).
- محمد محمد أبو ليلة، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي –دراسة نقدية– ، ط1، القاهرة، (1423ه/2002م).
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مراجعة: د/ درويش الجويدي، ط3، المكتبة العصرية، بيروت، (1429 ه /2008م).

التشاكل الحرفي في النظم القرآني بين (السجع) و(الفاصلة)
-قراءة في آراء اللّغويين العرب قديما وحديثا –

- تعد رؤية ابن سنان الخفاجي رأيا وسطا بين المتكلمين والبلاغيين في تسمية التشاكل الحرفي في النظم القرآني، ومنطلقا لاختلاف المحدثين في المسألة حينما ربطوها ببلاغة الإيقاع في القرآن الكريم في ظل درس إعجاز القرآن الكريم.
- تعدت رؤى المحدثين في تسمية (التشاكل الحرفي) في النظم القرآني مسألة القبح والحسن إلى مسألة اصطلاحية متعلقة بدرس إعجاز القرآن الكريم؛ فغلب بعضهم أحد المصطلحين، ولم يجد آخرون فارقا بينهما، وفريق آخر ولد مصطلحا ثالثا جامعا: (الفاصلة السجعية) القائمة على مبدأ (الوقف والابتداء) أكثر من التماثل الحرفي، والهدف هو إيجاد المصطلح المناسب لصفة الإعجاز القرآني.
- اتحدت آراء اللغويون العرب قديما وحديثا في مقصد واحد، وهو: خدمة كتاب الله تعالى.